

الفصل الثاني

اختيار موضوع البحث

الاختيار بالنسبة للطالب الجامعي - الاختيار بالنسبة للباحث في التاريخ -
بعض القواعد - بعض الأمثلة .

إن أول مسألة تواجه الباحث المبتدئ في دراسة التاريخ هي مسألة اختياره موضوعاً للبحث . والمسألة بالنسبة للطالب الذي يبدأ دراسته في المرحلة الأولى من الجامعة ، تختلف عنها بالنسبة للباحث الذي أخذ يتطّلع إلى الدراسة العلمية المنتجة .

فالطالب المبتدئ في التعليم الجامعي لا يُنتظر منه في الغالب أن يقوم ببحث علمي مبتكر أصيل ، يستخلص فيه حقائق تاريخية مجهولة ، أو يكشف عن مجموعة من الوثائق لم تكن معروفة من قبل . ولكن المطلوب منه هو أن يتوفر على تحصيل وسائل الإعداد والتدريب التي تؤهله للعمل العلمي في المستقبل .

والطالب في أثناء دراسته الجامعية الأولى ، يختار بإرشاد أستاذه ، بعض الموضوعات المدروسة ، لا لكي يأتي فيها بجديد ، بل للتمرين والتدريب والاقتراب وهو في هذا يشبه دارس الكيمياء أو الطبيعة أو التشريح ، الذي يقوم بأداء التجارب المعروفة والتي ثبتت صحتها نهائياً لكي يتدرب ويعرف ما عرفه غيره من قبل .

ويستطيع طالب التاريخ أن يختار موضوعات منوعة من الفروع التي يدرسها . ويمكنه أن يبحث موضوعاً عاماً ، مثل كتابة ملخص عام عن تاريخ ناپليون في حيز محدود . وهو يعتمد في ذلك على القليل من المراجع الأساسية عن هذا الموضوع التي يأخذها عن أستاذه ، أو التي يستخرجها بنفسه من كتب المراجع ، فيقتبس ويدون منها مذكراته . وينبغي أن يلاحظ وضع أرقام الصفات للكتاب أو الكتب التي أخذ منها ، على هوامش أوراقه ، حتى يمكنه الرجوع إلى تلك الكتب إذا اقتضى الأمر ذلك . ثم يجمع ما حصل عليه من المعلومات ، جاعلاً نصب عينيه التمييز بين مجموعاتها التفصيلية التي تتعلق كل منها بنقطة جزئية

محدّدة ، ثم يقارن ويمزج بين هذه الجزئيات بعضها وبعض . ثم يعرض بإيجاز نشأة نابليون وتعليمه وشخصيته ، وتدرّجه في المناصب ، وحروبه في أوروبا ، ثم في الشرق ثم في أوروبا ، وحكومته وإدارته ، وظروف أوروبا في عهده ، ووقوف إنجلترا في سبيله ، وتألّب أوروبا عليه ، ثم سقوطه وحياته في المنفى . وسيتجاوز الطالب في هذه الحال عن كثير من التفاصيل والحركات المحلية ، ويكتفى بالمسائل الهامة ، سواء أكانت حوادث الحروب أم مشاكل السياسة الداخلية أم الخارجية* .

وبعد ذلك يتدرج الطالب فيختار جزءاً محدداً من الموضوع العام المشار إليه ، مثل حملة نابليون على روسيا في سنة ١٨١٢ . فيبحث الظروف التي أدت إلى تلك الحملة ، ويتتبع سيرها والمعارك التي حدثت ، ووصول نابليون إلى موسكو ، ثم ارتداده وإخفاقه وما لحق به من الخسائر ، وما ترتب على ذلك من النتائج في فرنسا وفي أوروبا . وهو في هذا سيبحث موضوعاً أضيق من الموضوع السابق . ولكن بحثه سيكون بالضرورة أكثر عمقاً ، وإمامه بتاريخ نابليون سيجعله أقدر على دراسة هذه الحملة الروسية .

ثم يتدرج الطالب إلى بحث نقطة تاريخية أكثر تحديداً ، مثل معركة واترلو في سنة ١٨١٥ . وهو في هذه الحال سيدرس الظروف التي أدت إلى هذه المعركة ، ويقارن بين القوى الحربية لكل من فرنسا وإنجلترا وبروسيا ، ثم يدرس أرض المعركة وخططها ، ويتتبع العمليات العسكرية . وما قام به ولنجتون وبلوخر ، وحالة الجنوّ ، وتأخر وصول النجدة الفرنسية ، ويوضح كيف هُزم نابليون ، ويشرح

* Lavisse, E. et Rambaud, A. : Histoire Générale, 12 vols. Paris, 1893-1901. vol. IX. 1800-1815.

The Cambridge Modern History, 12 vols. London, 1904-1910. Vol. IX. Napoleon.

Rose, J.H. : The Life of Napoleon I. London, 1929.

Rose, J.H. : The Personality of Napoleon. London 1929.

Ludwig, E. : Napoleon, trans. by Eden and Cedar Paul. London, 1929.

وهذا الكتاب ترجمتان عربيتان ، فقد ترجمه عادل زعيتر عن الترجمة الفرنسية ، وترجمه محمود أندسوق عن الأصل الألماني . وعلى الرغم من فائدة الترجمة إلى العربية فن الأفضّل لطالب التاريخ أن يقرأ الكتاب في أصله أو في ترجمة أوروبية له لكي يكون ذلك سبيلاً إلى التقدم في اللغة الأوروبية التي يختارها .

ما ترتب على ذلك من النتائج * . وإن بحثه للموضوعين السابقين سيجعله أقدر على دراسة هذه الناحية الأخيرة الأكثر تحديداً . وسيعلمه هذا التدريب التدريجي فائدة الإلمام بموضوع أوسع وانتقاله منه إلى نقط أكثر تحديداً . وسيعلمه هذا التدرج ضرورة الاهتمام بالجزئيات مع عدم إغفال الروح العام والنظرة العامة إلى العصر الذي يدرسه ، إذ لا بد من العناية بهاتين الناحيتين معاً على اتساق وتوافق .

ويلاحظ أيضاً أنه من بين التدريبات المفيدة ، للطالب في الدور الأول من دراسته الجامعية ، أن يختار كتاباً في موضوع بعينه - وليكن باللغة العربية في أول الأمر - وليتكن صفحاته ٣٠٠ مثلاً - ويلخصه في ١٠٠ صفحة أولاً ، ثم يلخصه في ٥٠ صفحة ثانياً ثم في ٢٠ صفحة ثم في ١٠ صفحات . ثم يطبق هذا على كتب أخرى أجنبية - ولا بد له من أن يُحسن معرفة لغة أجنبية واحدة على الأقل - وسيجد أنه قد أفاد فائدة طيبة ، وتعلم القدرة على الاستيعاب والتركيز ، فضلاً عما يكسبه من المعلومات التاريخية الواردة في الكتب التي اختارها ، وما يجنيه من الحصيلة اللغوية والفكرية ، بالقراءة ، والترجمة ، والاقتباس ، والتدريب على الإيجاز والتركيز والكتابة .

وكذلك يستطيع الطالب أن يدرس بعض الوثائق الأصلية المطبوعة في بحث موضوع معين ، كما يمكنه أن يدرس بإرشاد أستاذه بعض الوثائق المخطوطة ، لكي يستخرج منها بعض الحقائق اللازمة لبحث مسألة معينة . وأحياناً يشترك بعض الطلاب مع أساتذتهم في دراسة بعض الأصول التاريخية ، ويقومون بنشرها نشرًا علمياً . ويكون هذا كله بمثابة تدريب وإعداد للمستقبل الذي يتطلع إليه دارس التاريخ .

ويلاحظ أن ما ينطبق على طالب التاريخ المنتظم في الدراسة الجامعية ، يمكن أن ينطبق على كل شخص لم تُتاح له فرصة التعليم الجامعي ، أو لم تتح له فرصة دراسة التاريخ بالجامعة ، ويشعر في نفسه بالميل إلى دراسة التاريخ والكتابة فيه .

Becke, A.F. : Napoleon and Waterloo. London 1939

Esposito, V.J. and Elting, J.R. : A Military History and Atlas of the Napoleonic Wars. London, 1964.

وهذا هو التدريب الذي قمت به بإشراف الأستاذ جرات بكلية الآداب في القاهرة في ١٩٣١ وقيل صدور المرحمين المذكورين .

وليست هناك حدود أو موانع أمام الراغب في الاستزادة من سبل المعرفة ، ولكن لا بد من التزوّد بوسائل هذه المعرفة وأساليبها ، إذ لا تكفى الرغبة وحدها في بلوغ الهدف المنشود . وينطبق على هذا الدارس - العلماني - الراغب في دراسة التاريخ وكتابته ، ما يطبق على الطالب الذي تخرّج في الجامعة ورغب في أن يمضى قدماً في دراسة التاريخ .

وحيثما يتم الطالب مرحلة التعليم الجامعي ويحصل على درجة جامعية ، وينوى مواصلة دراسته للتاريخ ، فإن اختيار موضوع البحث يبدو في صورة جديدة . في هذه الحال يجب على الباحث أن يلاحظ أن عليه أن يختار بنفسه موضوع البحث الذي يروق له . وعلى الأستاذ المشرف أن يتحقق من أنه يفعل ذلك . والعلاقة القديمة التي كانت قائمة بين الطالب وأستاذه ، ينبغي أن تتغير وتتحوّل إلى علاقة قائمة على أساس من المساواة ، وعلى تحمّل المسؤولية ، وعلى العمل العلمي المشترك ، وعلى النقد الحرّ والتقدير المتبادل . والباحث المبتدئ في هذه المرحلة الذي يُضطر إلى الخضوع لرأى أستاذه في اختيار موضوع البحث ، والأستاذ الذي يقبل ذلك ، أو الذي يحاول أن يسلي على طلابه موضوعات معينة - كلاهما مخطئ . وصحيح أن الباحثين المبتدئين الذين يمكنهم الاستقلال في اختيار موضوعاتهم قليلون ، وربما لا يعرفون كل ما يتعلق بالعصر أو الناحية التي يرغبون في دراستها . ولكن الباحث يمكنه في هذا الدور استيضاح رأى أساتذته الذين يمكنهم إرشاده فيما غمض عليه ، دون أن يملوا عليه رأياً معيناً ، إذ أن الاختيار النهائي لموضوع البحث التاريخي أو تعديله أو تركه إلى موضوع آخر ، ينبغي أن يُترك للباحث لكي يُقرر بنفسه ما يراه .

والباحث في هذا الدور لا يستطيع أن يبحث أي موضوع كان ، إذ أن المطلوب هو أن يقوم ببحث أصيل مبتكر في العلم (original) ، ويكشف عن حقائق تاريخية جديدة . فلا يكون البحث في هذه الحال بناء على الرغبة فحسب بل بناء على ما يجب أن يُبحث أو ما يمكن أن يُبحث . وقد يُقال إن الباحث لا يختار الموضوع التاريخي ، ولكن الموضوع التاريخي هو الذي يختار الباحث .

لمى الباحث أن يرتاد المناطق المجهولة ، وأن يشهد أساحته وكفائته ، ويتحدث ، ويفكر ، حتى ينبثق أمامه الضوء الجديد .

فالباحث المبتدئ في هذه المرحلة الثانية من الدراسة ، قد يثير اهتمامه بعض المسائل في تاريخ اليونان القديم ، أو في تاريخ العصور الوسطى ، أو في تاريخ إيطاليا ، أو في تاريخ روسيا . فلكى يمضى في بحث إحدى هذه النواحي ينبغي عليه أن يعرف العلوم المساعدة الرئيسة المرتبطة بها . وإذا لم يكن يعرفها فيجب عليه أن يقرر من أول الأمر بصراحة : أهو مستعد أو قادر على أن يتعلمها ؟ أهو مستعد لأن يتعلم اليونانية القديمة أو اللاتينية القديمة أو لاتينية العصور الوسطى أو الإيطالية أو الروسية مثلا ؟ أهو مستعد لأن يتعلم ما يتصل بموضوعه من العلوم المساعدة الأخرى ؟ فإذا لم يكن مستعداً أو قادراً على أن يفعل ذلك وجب عليه أن يعدل عن المضى في بحث موضوع تُعوزه فيه الوسائل الضرورية ، ويمكنه أن يتجه إلى مجال بحث آخر يكون ذا خبرة بأصوله وقواعده أو على استعداد لأن يحصل ذلك .

والمبتدئ في البحث التاريخي العلمي ينبغي أن يراعى بعض المسائل . فليس من الضروري دائماً تحديد عنوان الموضوع من أول الأمر . ويكفي تحديد العصر والنواحي التي تصلح موضوعاً للبحث في نطاق معين . أما التحديد النهائي فيتم في الغالب بعد المضي شوطاً في القراءة والبحث . وعلى الباحث أن يحدد بصفة تقريبية الزمن الذى سيخصصه لبحث موضوعه . والباحث المبتدئ محتاج إلى بعض الوقت لكى يتقصى فيه أحوال العصر الذى يكون موضوع بحثه جزءاً منه . وتحديد الوقت التقريبي مرتبط بتحديد الموضوع . فينبغى ألا يختار موضوعاً طويلاً ، إذ أن اختيار ناحية أو مسألة محددة يُمكنه من إنجاز بحثه في وقت مناسب . مع الإتيان فيه بجديد على العلم ، ويحسن أن تكون جزءاً من موضوع عام مترابط البناء ، لكى يتسع المجال أمام الباحث لمواصلة دراساته في المستقبل .

فلا يجوز للباحث الذى يريد أن يكتب بحثاً علمياً تاريخياً — لا يجوز له أن يتخذ تاريخ الدولة الأيوبية بأكمله موضوعاً للبحث ، لأنه موضوع طويل .

فالأيوبيون حكموا دولتهم من سنة ١١٩٦ إلى سنة ١٢٥٠م . ودراسة هذه الفترة دراسة عميقة مع كشف حقائق جديدة عنها لا يمكن أن يتم في سنوات قلائل . وإذا أصرَّ الباحث على القيام بهذه الدراسة في فترة محدودة من الزمن ، فلن يخرج منها بنتيجة أكثر من تلخيص واقتباس ما هو موجود عن هذا الموضوع في المراجع السابقة عليه .

أما إذا خصَّص وقته وجهده في نفس الفترة المحدودة من الزمن ، لبحث ناحية معينة بالذات من تاريخ الدولة الأيوبية ، مثل تاريخ صلاح الدين ، أو تاريخ الملك العادل ، أو تاريخ التجارة في عهد الدولة الأيوبية ، أو نظام الحكم في عهد تلك الدولة ، أو معركة حربية معينة ، فإنه يستطيع في هذه الحال أن يسبر غور الأرض المجهولة ، ويكشف عن حقائق تاريخية جديدة . وبديهي أن الوقت والجهد اللذين يُخصَّصان لفترة أقصر يأتیان بنتائج علمية أعمق وأدق مما لو خصَّصا لفترة أطول امتداداً . وإن وضع مؤلف علمي دقيق عن عصر الدولة الأيوبية بأكمله لا يمكن أن يتم إلا بعد دراسة جزئيات هذا العصر ، وبعد الكشف عن كل أو أغلب الحقائق التاريخية التي يمكن الوصول إليها .

وما يُقال عن عصر الدولة الأيوبية ينطبق تماماً على كل موضوع تاريخي آخر ، منذ أقدم العصور حتى الأزمنة الحديثة ، وفي كل أقطار المعمورة . والمؤلفات التي لأيراعي فيها ذلك لا تُعدّ كتباً علمية ، ولكنها قد تُعدّ كتباً ثقافية نافعة للقارئ العام .

وكذلك ينبغي أن يلاحظ الباحث عند التفكير في اختيار موضوع بحثه ميله — بغير تحيز — أو استعداده الخاص ، سواء أكان ذلك في الناحية السياسية أم الاقتصادية أم الدينية أم العسكرية أم الحضارية . . . وليس هناك ما يدعو الباحث إلى أن يقصر نفسه على ولوج ميدان لا يشعر في نفسه بالميل إليه . وعلى العكس فإن طرُقَ المجال الذي يميل إليه الباحث يجعله أقدر على العمل وأقوى على كشف الحقائق التاريخية .

ومن الضروري للباحث أن يمر كذلك خلال المرحلة التالية ، قبل أن يستقر على اختيار موضوع معين ، وتُخلص هذه المرحلة فيما يلي : هل الموضوع الذي

فكّر فيه الباحث يحتاج إلى أن يُبحث ؟ ألم يبحث من قبل بحثاً علمياً ؟ أم هل بُحث بطريقة غير مستوفاة ؟ وألم تُدرس المادة الأصلية المعروفة عنه ولم تُنقد ولم يُستخلص مضمونها على الوجه الأكمل ؟ وهل وُجدت - أو هل يمكن أن يُكشف عن أصول تاريخية جديدة تبرّر إعادة بحث هذا الموضوع من جديد ؟ إذا توفرت بعض هذه الشروط ، فعنى ذلك أن الموضوع قابل للدرس والبحث * .

والمسألة الأخيرة التي ينبغي مراعاتها في هذا الصدد ، تتعلق باختيار موضوع البحث في نطاق ما يُصطلح على تسميته بالعصر الحديث أو بالتاريخ المعاصر . يُلاحظ في هذه الناحية أن بعض علماء التاريخ يرون أن التاريخ الحديث يبدأ منذ القرن السادس عشر ، ويرى آخرون أنه يبدأ بعصر النهضة ، دون أن يجعلوه وحدة بذاتها منفصلة عن التاريخ الحديث . ويرى بعض أن ما يُصطلح على تسميته بالتاريخ المعاصر ، يبدأ منذ الثورة الفرنسية الكبرى في سنة ١٧٨٩ ، على حين يرى غيرهم أنه يبدأ منذ حرب السبعين . ومن المصطلح عليه كذلك أن التاريخ كموضوع للدراسة العلمية لا يجوز أن يتعدّى فترة تبعد مدة خمسين سنة - على الأقل - بالنسبة للوقت الذي يتناوله فيه الباحث بالدرس والتأليف العلمي .

ويرجع هذا التحديد إلى محاولة إعطاء المؤرخ الفرصة لكي يبعد - بقدر المستطاع - عن التأثير الشخصي - من حيث الرغبة في المنفعة أو الخشية من وقوع المضرة ، أو الانسياق وراء الدافع أو التيار العام ، الذي من شأنه أن يعوقه ، في أحوال كثيرة ، عن وزن المسائل وتقدير الظروف تقديراً أقرب إلى الحق والعدل والواقع التاريخي .

ويرجع أيضاً هذا الاصطلاح على فترة الخمسين سنة - وبصفة أساسية - إلى أن دور الأرشيف التاريخية لا تفتح أبوابها للباحثين إلا بعد انقضاء تلك المدة ، وذلك مراعاة للمصالح الدبلوماسية أو العسكرية التي تحرص كل دولة على رعايتها بقدر المستطاع . وصحيح أن الحكومات قد تنشر بعض الأوراق الرسمية التي تمس مسائل أكثر قرباً إلينا ، ولا شك في فائدتها للباحثين ، ولكن هذا لا يعني أن هذه الحكومات قد نشرت كل أو أهم ما عندها بشأن بعض المسائل المعنية ،

فهى لا تنشر إلا ما ترى أنه يحقق مصلحتها ، وتُخفى ما عدا ذلك . وحتى الوثائق الرسمية التى تبيح الحكومات نشرها فور الانتهاء من موضوعها ، لا تُعطى صورة حقيقية لخفاياها ، ولما يُحتمل أن يكمن وراء سطورها ، لأن الحكومات لا تنشر المحاضر الرسمية الخاصة بها ، أو لا تنشر مسودات تلك المحاضر ، كما لا تنشر مسودات الوثائق الرسمية ذاتها ، وفى العادة يُدون عليها ملاحظات أو تعليقات ، أو تُغيّر فيها جمل وتعبيرات ، أو ينالها حذف أو إضافة جمل أو كلمات . وهذه المسودات تظل محجوبة عن الباحثين حتى تنقضى فترة الخمسين سنة المشار إليها . وكلما تقدم الزمن تظهر أوراق أو مذكرات أخرى غير رسمية تُلقى أضواء على موضوع الدراسة . وناهيك بالوثائق السرية (top secret) التى يكتبها رجال الدولة والمسؤولون التى تتناول المسائل الخطيرة وهذه ربما تظل محجوبة عن الدارسين فترة أطول ، قد تبلغ القرنين من الزمان !

وفضلا عن ذلك فإن مرور فترة الخمسين سنة — على الأقل — بين الزمن الذى يعيش فيه الباحث وبين زمن الموضوع الذى يتناوله — يُحقق الفرصة الزمنية التى يهدأ فيها مرجل الحوادث التاريخية . ويتبلور مضمونها ، وبذلك تصبح أدنى إلى الفهم والدرس والاستيعاب . ويكون دارس التاريخ فى هذه الناحية أشبه بيمَنٌ ينظر إلى صورة أو تمثال ، فلا تتضح له معالمها ، ولا يمكنه أن يتذوق ما فيها من فن أو جمال ، إلا إذا باعد بينه وبينهما بمسافة معينة ، بحيث إنه إذا ازداد منهما اقتراباً ، نقصت قدرته على استجلائهما ، بل ربما عجز عن رؤيتهما تماماً .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن المثل الأعلى لكتابة التاريخ كتابة علمية ، يقف عند القرن السابع عشر . وذلك لأن أحوال أوروبا والعالم كانت قد بلغت عندئذ حدّاً من البناء والشكل والاستقرار ، بحيث تصلح عصوره مادة للدراسة العلمية الرصينة . وعندهم أن القرن الثامن عشر قد شهد أحداثاً وتطورات جديدة شملت شتى مرافق الحياة ، من اختراع وصناعة ، واتساع سياسى من نوع جديد ، ومن أفكار ثورية سياسية واقتصادية واجتماعية جديدة . ومن أساليب مبتكرة فى الفنون والآداب والعلوم ، مما لا تزال تؤثر فى مصائر العالم حتى الوقت الحاضر على

نحو كفيفيل بأن يؤثر على الباحث ، بحيث يتعرض لتيارات جارفة ، من شأنها أن تقلل من قدرته على دراسة التاريخ دراسة علمية موضوعية خالصة من التحيز والوهى بقدر المستطاع .

ولا يعنى هذا بداهة أن يمتنع الدارسون كافةً عن تناول الأحوال القريبة أو الجارية بالبحث والدرس ، إذ لا بد من أن يكتب أهل العصر عن عصرهم كل ما يمكنهم أن يكتبوه . فهم يستطيعون أن يدوتوا آراءهم وملاحظاتهم ومذكراتهم ومراسلاتهم ومعرفتهم بالشؤون الجارية ، مِمَّا لا يتاح للاحقين عليهم أن يقوموا بتسجيله ، ولكن لا يمكن أن يُعدَّ ما يكتبونه دراسة علمية تاريخية ، بل يُعدَّ كمادة تاريخية تصلح للدرس والبحث لاستخلاص التاريخ منها في المستقبل .

وإن دراسة الشؤون الجارية في أمة من الأمم ، لتتدخل في نطاق العلوم السياسية أو القانونية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الإحصائية أو الأنثروبولوجية أو الصحفية أو الإعلامية . . . وهذه كلها دراسات حيوية وجوهرية ، إذ تُطلع المعاصرين على مشاكل المجتمع الذي يعيشون فيه ، وتوجههم إلى تلمس الحلول المناسبة الكفيلة بتحقيق مصالحهم ، وترسم الخطط للتقدم والنمو الذي يطمحون إلى بلوغه ، وإغفال هذه الدراسات يُعدُّ قصوراً عن إدراك حاجات المجتمع . ولكن هذه الدراسات ليست داخلية في اختصاص التاريخ بالمعنى العلمى الدقيق .

ويلاحظ أن بعض المشتغلين بالدراسة التاريخية بمفهومها العلمى ، يكتبون أحياناً في الشؤون الجارية ، ولكنهم يعرفون في الوقت نفسه بأن ما يكتبونه فيها لا يُعدُّ من التاريخ ، بل يكون من باب التأمل أو الملاحظة أو إبداء الرأى في مسألة من مسائل الساعة ، وليس هذا هو موضوع هذا الكتاب .

وكيف يمكن للباحث المبتدئ أن يتثبت من توفر بعض الشروط التى تقتضى منه الإقدام على البحث فى الموضوع الذى يتطلع إلى دراسته ؟ الطريقة العاجلة هى أن يبادر إلى استشارة أحد المختصين فى مجال البحث التاريخى المعين فى البلد الذى يعيش فيه ، أو فى بلد آخر بطريق المراسلة .

وإذا تعدر عليه الوصول إلى ذلك الإخصائى ، أو حينما يريد أن يمحّص

— ما يكون قد أشار عليه أحد المختصين ببحثه — يستطيع أن يمضي بنفسه في استقصاء الموضوع الذى يعنيه . فلكى يعرف الباحث المراجع العامة والخاصة التى تتعلق بذلك الموضوع ، وهل اعتمدت على كل الأصول المعروفة ، يلزمه الاسترشاد بفن كتب المراجع (البليوغرافيا) . والتأكد من أن الأصول التاريخية الموجودة قد استُخدمت بطريقة علمية صحيحة ، يدخل في باب نقد الأصول والمصادر .

ومسألة البحث عن إمكان العثور على مادة أصلية جديدة عن الموضوع ، تُعرف عن طريق البحث والتحرى في دور الكتب ودور الأرشيف التاريخية . وسوف نعرف أشياء عن هذه النواحي في الفصول التالية . وإذا لم يتحقق بعض هذه الشروط في موضوع البحث ، فلا معنى مطلقاً للاستمرار في محاولة دراسته دون جدوى . ولا بد إذًا من العدول عنه إلى موضوع آخر يمكن الإتيان في بحثه بجديد .

وينبغي ألا يكون غرض الباحث ، مجرد الحصول على درجات جامعية لتحقيق أغراض معينة . فن الممكن لشخص ما ، أن يتوفّر على دراسة موضوع معين في زمن محدد ، ويخرج بكتابة بحث لا بأس به ، وينال به درجة علمية . ولكن لا يعنى هذا أنه قد بلغ نهاية الشوط أو أنه أصبح مؤرخاً ، لأن الدرجة العلمية لا تزيد عن كونها ثمرة تجربة أولية ، ولا تُعدّ سوى بداعة الطريق .

والباحث المخلص لا يكفّ عن متابعة دراساته التاريخية بحصوله على الدرجة العلمية . وإذا جعل الدارسون هدفهم الأساسى هو الحصول على الدرجات العلمية وما يرتبط بها من المنافع ، فلن يكون لهم من العلم إلا طلاء ومظهر خارجى . والعلماء جميعاً — ومن بينهم علماء التاريخ — لا يُصبحون علماء إلا إذا أُشربت نفوسهم روح العلم الخالص ، وبجثوا العلم للعلم عن لذة ذاتية ورغبة أصيلة * .

ومن البديهي أن ثمرة جهود هؤلاء لن تقتصر على ذواتهم فحسب ، بل ستؤول في النهاية إلى عشرتهم وقومهم وبلادهم ، وربما إلى البشرية بأسرها .

وما الأعمال والبحوث التاريخية العلمية التى ينبغى أن يقوم بها الباحثون في مصر ؟ صحيح أننا أمة ذات تاريخ طويل مجيد ، وأن بلادنا تضم آثاراً وأصولاً تاريخية تُنبئ عن غزارة تراثنا القديم والوسيط ، ولكننا لا زلنا فقراء ومتأخرين

في ميدان البحث التاريخي بالمعنى العلمي الحديث . ولقد سبقنا الغرب بمراحل هائلة في كل أدواره ، مثل نشر الفهارس ، ووضع كتب المراجع (البليوغرافيات) المتنوعة ، وجمع الأصول التاريخية ، ونشر بعضها ، ووضع المؤلفات التي لا حصر لها في مختلف أنواع التاريخ ، في كل عصوره ، في تاريخ العالم بعامه ، وفي تاريخ الدول والشعوب بخاصة ، سواء أكانت المراجع التي تتناول التاريخ العام أم المراجع التي تبحث عصوراً معينة ، ونواحي خاصة في تاريخ الملوك والحكام ، والأفراد البارزين ، والشعوب ، ووقائع الحروب ، وثمار الحضارات . . . فأين نحن من هذا كله !

صحيح أن أسلافنا في الحضارة قد خلفوا لنا مؤلفات قيمة في التاريخ ، تلقى أضيواءً على ماضيها، ولكن لم يكن لها أن تسير على الأسلوب المعروف في كتب التاريخ المؤلفة في الزمن الحديث ، على الرغم من دقة معلومات بعضهم وحرص بعض مؤلفيها على الثبوت والتحرّي ، والسعي إلى إدراك مضمون الأحداث . وهي في جملتها أسس جوهرية في وضع مؤلفات علمية حديثة عن نواح من تاريخنا في كل العصور . وصحيح أن بعض العلماء الأجانب قد وضعوا مؤلفات حديثة في تاريخنا بعضها دقيق محايد ، وبعضها الآخر يخضع للغرض ويسعى إلى تحقيق المنفعة . وصحيح أن بعض هؤلاء العلماء قد عُنِيَ بنشر شيء من الوثائق الخاصة بتاريخ مصر في عهد أسرة محمد علي ، وصحيح كذلك أن بعض الباحثين المصريين قد وضعوا بحثاً في نواح من التاريخ المصري أو العربي أو الأوروبي منذ أقدم العصور حتى العصر الحديث . وهي إن تكن جهوداً فردية أو عملاً لبعض الهيئات الجليلة بالتقدير ، إلا أنها لا تزال قليلة ، وتتفاوت قيمتها من الناحية العلمية في بعض الأحيان ، لأن بعض الباحثين قد أعوزتهم الفرصة للاطلاع على المصادر التاريخية في مظانها الأولى ، والتي لم تكن في متناول أيديهم ، إذ أنها منتشرة في دور الأرشيف ودور الكتب في الخارج ، أو لأن بعضهم ينهج نهج السرعة في دراسته . إما لأن هذه هي طبيعته ، وإما لأنه مضطر إلى ذلك بحكم ظروفه الاقتصادية ، وبذلك يخالف أساس البحث العلمي .

فينبغي على المعنيين بالدراسات التاريخية ، من الباحثين أو من الهيئات

الخاصة ، السعى إلى إنجاز أعمال تمهيدية واسعة النطاق وأساسية جداً لكي تسير الدراسات التاريخية سيراً علمياً منتظماً . وأول هذه الأعمال القيام بطبع الفهارس الخاصة بدور الكتب ودور المحفوظات في مصر ، بالطرق العلمية الحديثة ، أى بتبويبها وتقسيمها ووضع الفهارس لها ، مما هو غير متوافر تماماً في الموجود منها ، فضلاً عن غير الموجود أصلاً . ثم وضع فهارس للمخطوطات والمطبوعات الخاصة بتاريخ مصر ، أو الأقطار العربية ، ثم نشر الأصول التاريخية نشرًا علمياً حديثاً ، لكي يضاف ذلك إلى ما سبق في هذه السبيل .

وتوجد مثلاً آلاف من الوثائق التي لا تزال في حكم المجهولة ، عن نواح هامة في تواريخ مصر منذ بدء العهد العثماني حتى عهد محمد علي في دار المحفوظات المصرية ، ويقابلها آلاف الوثائق عن هذه القرون ذاتها ، محفوظة في دور الأرشيف في القسطنطينية (استانبول) ، وفي صقلية وناپلي وروما وبيزا وفلورنسا وجنوا والبندقية ، وفي فينا وباريس ولندن وموسكو وواشنطن . . . ومنها الأوراق الرسمية النهائية الممهورة بالإمضاءات والأختام ، ومنها مسوداتها بما تحتوي عليه من الملاحظات أو التعديلات ، وتُلقي معلوماتها بالأضواء على نواح كثيرة من تاريخ مصر والشرق الأدنى . والأغلبية الساحقة من هذه الوثائق لم تمسها يد إنسان - أو على الأخص لم تمسها يد باحث مصري أو عربي بعد . فن الضروري أن تُحصر هذه الوثائق وتُجمع وتُبوب - في مصر - أو في الشرق الأدنى - أو في أوروبا - ثم تُنشر أجزاء منها نشرًا علمياً حديثاً . وتستازم هذه الأعمال جهود أفراد عديدين ، وتستغرق سنوات طويلة . وأظن أن ما عمله الغرب لنشر مجموعات ضخمة من الوثائق التاريخية^(١) ، ومجموعة الوثائق التي نشرها الدكتور أسد رستم عن تاريخ سورية^(٢) ، وما نشره بعض العلماء الأجانب من الوثائق المستخرجة من

(١) من مجموعات الوثائق الخاصة بالتاريخ الأوروبي نجد مثلاً :

Calender of State Papers, 300 vols. London.

Collection des Documents Relatifs à L'Histoire de France, 300 vols. Paris,

1835..

Sanuto, M. : I Diarii, 58 voll. Venezia, 1879..

(٢) من الوثائق التي نشرها أسد رستم نجد « الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا » أجزاء . بيروت ، ١٩٣٠ - ١٩٣٣ .

دور الأرشيف في مصر وفي أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية ، والمتعلقة بنواح من تاريخ مصر في القرن التاسع عشر - أظن أن هذا كله جدير بأن يدفع القادرين منا إلى العمل على السير قدماً في هذا المضمار الجوهري .

وتواجهنا في تاريخ بلادنا مراحل كثيرة جدية بالدرس والبحث على مدى الزمن . وأذكر منها على سبيل المثال نواحي مختلفة في تاريخ الدولة الأيوبية ، ونظم الحكم في عهد المماليك ، وتاريخ التجارة العالمية في مصر ، والبحرين الأحمر والأبيض المتوسط في أثناء العصور الوسطى ، وتاريخ القبائل العربية في مصر ، وتاريخ المدن المصرية ، وتاريخ الأزهر والمساجد ، وتاريخ الأديرة والكنائس ، والفتح العثماني لمصر ، وتاريخ مصر المالي والإداري في العهد العثماني ، وتاريخ على بك الكبير ، والنظام الإداري في عهد محمد علي ، وتاريخ الطريق البري ، وتاريخ الحركة العربية ، وتاريخ الاحتلال البريطاني لمصر في سنة ١٨٨٢ ، وتاريخ مصطفى كامل والحركة الوطنية ، وتاريخ المسرح المصري . . .

ولقد نشأت في الغرب في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، الجمعيات التاريخية التي تضم المشتغلين بالدراسات التاريخية ، وتؤيد جهودهم في سبيل البحث العلمي الخالص . فأنشأ شتاين السياسي البروسي جمعية دراسات التاريخ الألماني ، وأنشأ جيزو ، حينما كان وزيراً للمعارف في فرنسا ، جمعية تاريخ فرنسا ، وكذلك قامت جمعيات تاريخية في بلجيكا وأسبانيا . . . وأخذت تعمل في نشر مجموعات ضخمة من الأصول التاريخية . وأخيراً نشأت في مصر « الجمعية المصرية للدراسات التاريخية » في الأربعينيات من هذا القرن ، وأخذت تعمل في حدود إمكاناتها على تشجيع الدراسات التاريخية .

= وأسد رسم (١٨٩٤ - ١٩٦٥) درس في الجامعة الأمريكية في بيروت وفي جامعة برنستون - عل ما أذكر - وعلم في الجامعة الأولى ثم في الجامعة اللبنانية وأشرف على المتحف الحربي في بيروت . وهو من رواد الدراسة المنهجية في علم التاريخ في العالم العربي . ومن منشوراته « مصطلح التاريخ » و « الروم » و « تاريخ اليونان من فيليبوس المقدوني إلى الفتح الروماني » . ونشر بالاشتراك مع فؤاد إفرام البستاني « كتاب تاريخ الأمير فخر الدين المعني » للشيخ أحمد بن محمد الحالدي الصفدي . وكان له الفضل - مع الأستاذ محمد شلبي غريبال - في بقاء في إيطاليا في سنة ١٩٣٥ ، حينما ضمت ذرياً بسوء تقدير الجامعة المصرية للدكتوراه الإيطالية ، حتى أرشكت حل تغيير مكان بعض من روما إلى لندن ، وذلك باستأص لنجوى خطابه الرقيق إلى ، فبقيت ، وكان من ثمار ذلك أني ترجمت الكوميديا الإلهية إلى اللغة العربية . وظللت وثيق الصلة به منذ سنة ١٩٣٥ في مصر ولبنان وسورية .

منهج البحث التاريخي

ومن أوجه النشاط في دراسة التاريخ في عالم الغرب ، ما نجده من التوسع في إصدار المجلات التاريخية الخاصة بالتاريخ بعامة أو بفروع التاريخ بخاصة* . ويصدر عن الجمعية المصرية للدراسات التاريخية مجلة سنوية خاصة منذ سنة ١٩٤٨ ، ولعله يكون من الميسور زيادة الصادر منها في كل سنة .

والدراسات التاريخية ، كغيرها من سائر فروع العلم والمعرفة ، في حاجة إلى المال والتأييد والتيسير عليها من جانب المسؤولين والقادرين ، لكي تتمكن من القيام بواجبها العلمي . ولا بد في الدراسات العلمية من الجهد المتواصل والإخلاص في العمل ، والبعد عن الزخارف وأبهة المناصب . ونحن في أشد الحاجة إلى إيجاد بيئة علمية صحيحة تعمل للعلم والمعرفة وتضع تقاليد تاريخية وطيدة ، وتقوم ببعض الواجب نحو العلم والوطن والتاريخ .^٩

* من المجلات التاريخية في الغرب نجد مثلا :

American Historical Review. New York, 1879 ..

English Historical Review. London, 1886 ..

La Revue des Questions Historiques. Paris, 1886 ..

Rivista Storica Italiana. Torino, 1884 ..